حلم ليلة صيف

• علاء حليحل

قصة قصيرة

تمرَّد قلبي عليّ. أنا العاشق السيِّئ الحظ. قلتُ له: لنحاولْ مرةً أخرى. قال: ولِمَ؟ قلتُ: لئلاّ نُفْسد ما يُمْكن أن يكون. قال: ولكنْ ما سيكون فاسد في أصله. قلتُ: وكيف تَعرف؟ قال: رأيتُكَ في الحلم تصير طائرًا أبيضَ كبيرًا، ثم تحاول التحليقَ فلا تنجح، ثم تقع في حفرة من دون قرار، وتقع وتقع وتقع. قلتُ: وماذا حصل بعد ذلك؟ قال قلبي: لا أعرف، فأنا استيقظتُ من الملل. رأيت الملل في حلمكَ أسودَ، فخفتُ. فأنا حتى الآن لم أرَ الملل في حلمك إلا حالك السواد.

المخدة التي أنام عليها الآن سوداء. الشرشف أسود. الشبّاك من فوقي أسود. أشعة الشمس التي تَدخل من النافذة سوداء. الطاولة سوداء. عليها كتبٌ وأوراقٌ سوداء. خزانتي الملونة سوداء. ملابسي الملقاة على الكرسيّ سوداء. ملابسي الملقاة على الأرض سوداء. ملابسي الملقاة على الفرشة سوداء. السجّادة الوسخة سوداء. الكرسيّ أسود. المروحة سوداء. الحاسوب أسود. لوحةُ المفاتيح سوداء. صور ريما المعلّقة على الحاسوب سوداء. صورتي مع أختي وأخي سوداء. الباب المُطلّ على الشرفة أسود. الشرفة سوداء. الكتب المرتبة بعضها فوق بعض سوداء. رزمةُ الأقراص المدمجة على الطاولة سوداء. هاتفي أسود. رزمة الديسكات السوداء سوداء. خُفّي الصيفيّ أسود. الجوارب الملقاة في الزاوية سوداء. حذائي أسود. باب الغرفة أسود. الممر المفضي إلى الغرفة أسود. النملة التي تزحف الآن على الحيط الأسود سوداء. كلّ شيء أسود... إلاّ قلبي فهو حالكُ السواد.

قلبي متعب لأنني أتمدد عليه. كلما أتعبني قلبي تمدّدتُ عليه. فهو السبب. يُتعبني، فأرغب في الاستراحة، فأتمدد عليه. ينوء بحملي. أُحسّه يحاول الإفلاتَ من قبضة جسدي، فأُحكم التمدد فيَرْكن. يقول بهمس: تعبتُ. أقول: لا بأس. أغفو وأحلم بأني طائر أبيض. أحاول التحليق فأقع في حفرة عميقة ليس لها قرار. أحلم بأنّ الحفرة من دون قرار. وبعد دقائق أملّ من الحلم لأنّني أَسْقط كالحجر في حفرة بلا قرار. يمكن لهذا الحلم أن يستمر إلى الأبد. أستيقظ. أنقلب على الجانب الآخر. يستغلّ قلبي الفرصةَ فيهرب إلى الزاوية. عُدْ أيها الأسود، أقول بغضب. أراه يرتجف خوفًا. ثم يقول: لا أريد، لقد مللتُكَ. أبتسم بغضب مكبوت: أنت مللتني يا ابنَ القحبة؟ أجل، يجيب ويُسهب، مللتُ قمعَكَ لي. لماذا تخاف مني؟ ممَّ تخاف؟.. لستُ أخاف منك، أقول له، ولكنَّني لا أصدّقك في الغالب. فأنت غير عقلانيّ. ينتفض من مكانه: طبعًا أنا غير عقلاني؛ أنا القلب! أقول له بهدوء: ولهذا السبب فنحن لا نلائم بعضنا البعض. كلُّ ما أريده منكَ هو أن تستمرّ في ضخّ الدم إلى جسدي، وافعلْ ما شئتَ في أوقات فراغك. فأنت لا تعنيني بعد الآن. أنا سأصادق عقلي.. عقلك؟ ينتفض قلبي كالملسوع. عقلك؟ هل جننتَ؟.. أنا جُننتُ، أعلّق ساخرًا، كيف أُعَدّ مجنونًا وأنا صديقٌ عقليٌ؟.. لأنكَ واهمٌ تعِس، يقول قلبي.. وأنتَ؟ أقول بحنق، ألستَ تعيش على الوهم؟.. كلا، يعاند، أنا أعيش على الحقيقة. أنا الحقيقة، وكلُّ ما تبقّى منك رتوشٌ وفراغات.. لقد جُننتَ، أُنهي الجدالَ بعصبية، لقد جُننتَ. الآن أعرف لماذا مللتُ منكَ. عدْ إلى هنا وضُخّ الدم بهدوء، وإلاّ.. وإلاّ ماذا، سأل باستعلاء، أنتَ بحاجة إليّ لا العكس.. كلا، يا قلبي العزيز، فلولاي لكنتَ مجردَ آلةِ ضخٍّ غبية.

ثم نزلت النملةُ السوداءُ عن الحائط وسارت نحو الفرشة.

«أتمنى أن يغتصبَ نومَكَ حلمٌ جميلٌ،» بعثتْ لي عبر النقّال. ضحكتُ. قلتُ: جميل أن يَغْتصب نومي حلمٌ جميلٌ. أريد حلمًا أصير فيه طائرًا كبيرًا أبيضَ، أحاول التحليقَ فلا أَقْدر، فأقع في حفرةٍ سحيقةٍ من دون قرار. وأقع وأقع وأقع ولا أستيقظ.

ثم اقتربت النملة السوداء من مخدتي ولمّا تكلمني بعد.

الصيف يأتي من الشبّاك أسود. الهواء أسود. الشمس سوداء. الغيوم القليلة سوداء. العرق المنهمر على جسدي أسود. أنفاسي الحارة سوداء. عيناي سوداوان. شهوتي لجسدها سوداء. القبلة الأخيرة سوداء. المضاجعة الأخيرة سوداء. بلوزتي البيضاء التي لا زالت تَحْمل آثارَ المنيّ الجافّ سوداء. شعرتُها السوداء الطويلة التي تركتْها على الفرشة سوداء. ربطةُ شعرها الوردية التي وقعتْ خلف الفرشة سوداء. إضبارة الكحل التي تزينتْ بها قبل خروجها سوداء. أحمرُ الشفاه الذي لطّخ بلوزتي أسود. شفتاها سوداوان. عيناها سوداوان. حاجباها أسودان. رقبتها الرائعة سوداء. الوبر النابت على ملتقى الشهوة في أسفل ظهرها أسود. الشعر الأسود في أسفلها أسود. كلُّ ما أَذْكره منها أسود... إلاّ قلبها، فهو حالك السواد.

ثم اضطجعت النملة على المخدة بالقرب من رأسي، وحدثتني فقالت:

• عـــلاء حليـــحل

«يُروى أيها الرجل السعيد، ذو الرأي الرشيد، أنّ سندباد لمّا دخل المخيَّمَ توجَّه فورًا نحو الدكانة الصغيرة المطلّة على الخراب. فطلب كأسًا من الماء وحفنةً من الرزّ. فلما ابتلّ عرقه طرق يَنْثُر الرزَّ على الحطام ويغني بهدوء: 'طلعتْ يا محلا نورها شمس الشموسي...' وحَدَثَ، أيُّها الرجل السعيد، أنّ سندباد تعثّر وهو يَنْثُر الرزّ بقضيبٍ حديدٍ طالعٍ من الركام فوقع، فشجّ رأسَه، فساح دمه وأغمي عليه. وكان أن استردَّ وعيَه وإذ به في غرفة صغيرة مظلمة، حيطانُها سوداء متحركة. فتوجّس وتطيّر وبَسْمل وحَوْقل. ولما استوى بصرُه رأى جحافل النمل الأسود تسير على الحيطان أسرابًا أسرابًا، ولا تتوقف. تدور وكأنها في جنازة عسكرية ولا تتوقف. فكان أن أغمض عينيْه ثانيةً، وأخذ يَحْلم ببيته الذي تركه في بغداد المحطّمة، ثم نام.»

أَحْلم مرةً أخرى: أنا طيرٌ أبيض لا أقوى على الطيران. أقع في حفرة عميقة من دون قرار. أقع وأقع مثلَ حجر كبير. أقع ولا أصل. بعد دقائق أملّ من الحلم فأستيقظ. الحلم لا يأخذني إلى أيّ مكان، فلمَ الآحلامُ إذًا؟ أُشعل سيجارة وأُقرّر أن أحلم ثانيةً. الحَرُّ هو السبب. الحلم في ليلة الصيف هذه مستحيل. أريد أن أَحْلم بأنني طائر أبيض كبير، لا أقوى على الطيران، فأقع في حفرة عميقة لا قرار لها. أريد أن أحلم بوقوعٍ أزليٍّ من دون قرار. ولكنّ الحلم لا يتحقّق. كلُّ ما أحلم به هو أنني طائر كبير لا يقوى على الطيران فيقع في حفرة من دون قرار، ويقع ويقع ويقع... لماذا لا يحدث ذلك من دون أن أَشْعر بالملل؟

منذ أن صادقتُ عقلي صرتُ أَحْلم بعقلانية. فالطير الذي أَكُونُه في الحلم يَلْبس نظّاراتٍ طبيةً مثلي، وله كرشٌ تكاد تكون كبيرةً، مثلي، وشَعرٌ مربوطٌ إلى الخلف، مثلي، وذقنٌ فرنسيةٌ صغيرة، مثلي. كما أنّ الطير الذي أَكُونُه في الحلم يحب الكتابة والسينما والمسرحَ والرواياتِ السلسة، ويكره الكتبَ التنظيريةَ الثقيلة، خاصةً في الصيف. ثم إنّ الطير الذي أكونُه في حلمي العقلانيّ يحبّ الطبخَ ويحبّ برنامجيْ «الجنس والمدينة» و«أوز.» وهو لا يُحلّق لأنّه لا يَقْوى على التحليق مثلي. ولكنه يقع في حفرةٍ عميقةٍ بلا قرار. مثلي تمامًا. والحلم مملّ أيضًا، مثلي تمامًا.

ثم حدثتني النملة فقالت:

«...فلمّا استيقظ السندباد وَجَدَ النملَ وقد ذهب. وإذا بحيطان الغرفة بيضاء كالثلج. فسبّح بحمده ومَجَّدَ اسمَه وطفق يقرأ ما تيسّر من سورة النمل. فلما انتهى قام، وإذ به يقع في هوة سحيقة ملؤُها الضوءُ، فأغمي عليه في الحال...»

السماء في الحلم سوداء. ونينا سيمون التي تغني «أحبّني» سوداء أيضًا. وقلبي، الذي تركتُه لوحده يتفتّق ألمًا للأغنية، أسود. ولكنّه لا يثير الاهتمام، فالحلم عقلانيّ. ثم أعيد الأغنيةَ مرةً أخرى، ربما تكون الرابعة. وقلبي ينفطر شوقًا من الأغنية، وأنا وعقلي نقيس الحفرةَ التي سيجري فيها الحلمُ. يجب أن تكون مقاييسُها صحيحة ومضبوطة. على الحفرة أن تكون بلا قرار. نزل عقلي مع حبل طويل ليقيس عمقَها ولم يخرج إلى الآن. أشعر بالوحدة وأراها سوداء أيضًا. هذه هي المرة الأولى التي تكون فيها وحدتي سوداء. حتى الآن كانت دائمًا حالكةَ السواد.

ثم عافت النملةُ مخدتي فيممت شطر باب الشرفة، فقلتُ: ألا تكملين؟ فلم تعرني اهتمامًا، بل طفقتْ تنقّل أرجلَها على فراشي الأسود، فاستشطتُ غضبًا ودعستُها بقدمي فقَضَتْ على الفور. ثم خرجتُ إلى الشرفة لأرى الضوء الصيفيّ الأسود، وإذا بسندباد يقع عليّ من أعلى، فيعصرني ويدعسني مثلما دعستُ النملة. ولا أذكر للآن أنني استيقظتُ من هذا الحلم الغريب.

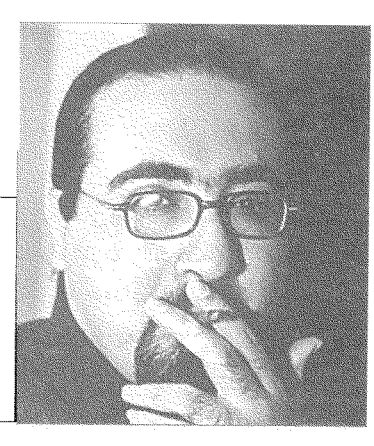

علاء حليحل (الجش):
يعمل صحفيًا ومترجمًا. صدرتْ له رواية **السيرك**، ومجموعة قصصية بعنوان **قصص لأوقات الحاجة** (فازت بجائزة القصة القصيرة في مسابقة الكاتب الشابّ للعام ٢٠٠٢ التي نظّمتها مؤسسة عبد المحسن القطّان). وقد أَرسل القصة أعلاه مباشرة إلى الآداب.